معاني النفي بـ(لا) في آيات التوحيد

د. سهاد جاسم عباس

كلية البنات - الجامعة الإسلامية

المقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.. وبعد..

فهذا بحث يتناول آيات محدّدة من الذكر الحكيم، تتناول أهمّ قضيّة من قضايا العقيدة الإسلاميّة، بل العقائد السماويّة كلّها. وهي قضيّة التوحيد، فما زال كثير من العباد لا يحيط بها علماً، أو يجهل الكثير من تفاصيلها، وهو أمر يعدّ خطيراً، لا يستهان به؛ لذا ارتأيت أن أدرس جانباً من جوانب هذه القضيّة، وجعلت مجال دراستي آيات من كلام ربّ العالمين، فبحثت عن المعاني المنفيّة فيها، بأداة من أدوات النفي، تعدّ أمّاً لهذا الباب، وهي (لا)، فحاولت حصر المعاني المنفيّة بها؛ لتكون عنواناً لهذا البحث المتواضع.

وجعلت هذه الدراسة في مبحثين، الأوّل يتعلّق بـ(لا) النافية للجملة الفعليّة، وذكر المعاني المنفيّة بهذا الأسلوب. والمبحث الثاني يتلّق بها نافية للجملة الاسميّة، وحصر المعاني الّتي نفيت بها عند دخولها على الجمل الاسميّة. وقد حاولت أن أذكر المعنى المنفيّ، وأورد شاهداً أو اثنين له، مع تحليل للتركيب النحويّ الّذي ورد فيه النفي؛ لأبيّن المعنى المراد منه.

وكانت كتب التفاسير أهمّ المصادر الّتي اعتمدتها في هذه الدراسة، ومن أهمّها جامع البيان للطبريّ، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وغيرها، فضلاً عمّا أفدت منه من كتب نحويّة تناولت الحرف (لا) بالدرس.

وأخيراً أسأل الله العظيم، ربّ العرش العظيم، أن يجعل في هذه الدراسة نفعاً للعباد، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، إنّه سميع مجيب.

المبحث الأول
لا النافية للجملة الفعليّة

ذكر بعض النحويّين أنّها متخصّصة لنفي المستقبل[١]. وذكر آخرون أنّها تستعمل للنفي في زمن الحال والمستقبل[٢]. وقد ذكر باحث معاصر أنّ دخول (لا) على الفعل المضارع يجعلها تدلّ في النفي على مطلق الزمن؛ إذ يمكن أن يشمل بها الزمن الماضي والحال والمستقبل؛ وذلك أنّ المضارع من الشمول والاتّساع، بحيث يشمل الأزمنة الثلاثة. [٣] وأرى أنّ دلالة (لا) عند دخولها على الفعل المضارع تحكمها القرينة، الّتي قد تكون لفظيّة أو حاليّة، فهي الّتي تشير إلى زمن النفي إن كان حالاً، أو مستقبلاً، أو مطلقاً.

أمّا دخولها على الفعل الماضي، فيشترط تكرّرها عنده، وهو قليل[٤]، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ ﴾ (القيامة). فإن لم تكرّر، فهي للدعاء، وليست للنفي[٥].

وكثيراً ما وردت (لا) في آيات التوحيد نافية للجملة الفعليّة. ويمكن إدراج المعاني الّتي أفادها النفي بها بالآتي:

إثبات صفات الكمال له تعالى بنفي ضدها:

وقد جاء ذلك الإثبات عن طريق المعاني الآتية:

ا- نفي الشريك عنه تعالى: وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الكهف).

فقد نفي الإشراك في حكم الله تعالى عن طريق نفي الفعل المضارع (يشرك)، المسند إلى الضمير العائد عليه تعالى، المتعدّي إلى المفعول الّذي جاء نكرة لغرض التعميم، والمعنى: لا يشرك في قضائه أحدا منهم، ولا يجعل له فيه مدخلا. [٦] وقد جاءت هذه الجملة بعد نفي الوليّ من دونه تعالى، معطوفة على الجملة الّتي تضمّنت هذا المعنى، وهي جملة اسميّة، دالّة على ثبات المعنى ورسوخه، ممّا يزيد قوّة المعنى في الجملة المعطوفة الدالّة على نفي الإشراك بأداة النفي (لا) داخلة على الفعل المضارع (يشرك)، الّذي يدلّ على الزمن المطلق.

ب- نفي السنة والنوم عنه تعالى: ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ (البقرة: من الآية٢٥٥).

فقد نفيت عنه تعالى السنة والنوم، بحرف النفي (لا)، في سياق جملة استئنافيّة[٧]. وردت بعد بيان وحدانيّة الله تعالى، وذكر الصفتين (الحيّ) و(القيّوم)، وإثباتها له عزّ وجلّ. وقد وردت (لا) في سياق هذا النفي مرّتين: قبل الفعل المضارع (تأخذه)، وبعد واو العطف لتوكيد هذا النفي. وفائدة هذا التكرار هو أنّها لو حذفت لاحتمل الكلام أن يكون (لا تأخذه سنة ولا نوم) في حال واحدة، فإذا قال: (ولا نوم) نفاهما على كلّ حال. [٨] وعلى هذا جاءت (لا) قبل الفعل المضارع مفيدة نفي الأمر المستمرّ، فهي لا تفيد نفي الحال أو الاستقبال أو كليهما، وإنّما أفادت الاستمرار في هذا النفي، فهذا النفي مقطوع فيه، ليس فيه تغيير.

ج- نفي إدراك الأبصار له تعالى: وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (الأنعام) إذ دخلت (لا) النافية على الفعل المضارع (تدرك)؛ لتنفي إدراك الأبصار له تعالى. أي: لا تدرك كنه حقيقته، فالمنفيّ هو هذا الإدراك، لا مجرّد الرؤية. [٩] معنى (لا تدركه الأبصار) هو(لا تحيط به)[١٠]، فالآية تنفي الإدراك مطلقاً دون الرؤية ... وحينئذ فتكون الآية دالّة على إثبات الرؤية ... فإنّه وصف لعظمته أنّه لا تدركه أبصار العباد، وإن رأته، وهو يدرك أبصارهم. [١١]

ومن هنا يتبيّن أنّ (لا) دخلت على الفعل المضارع للدلالة على مطلق الزمن في النفي فالمقابلة بين (لا تدركه) و (هو يدرك) توضّح لنا زمن الإدراك وعدمه: الماضي والحاضر والمستقبل. [١٢]

د- نفي الموت وإثبات صفة الحياة لله تعالى: قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الفرقان).

جاءت الجملة المنفيّة في هذه الآية صلةً لموصول وقع صفة لاسم الله تعالى (الحيّ)، وهذه الصفة جاءت مؤكّدة لموصوفها. وقد ورد هذا التركيب في سياق أمر النبيّ ﷺ بأنّ يتوكّل عليه تعالى[١٣]. فإنّه الحقيق بأن يتوكّل عليه دون الأحياء الذين يموتون؛ فإنّهم إذا ماتوا، ضاع من توكّل عليهم. [١٤] فقد وصف تعالى نفسه بالحياة الدائمة الّتي لا فناء لها ولا انقطاع، ونفى عنها ما هو حالّ بكلّ ذي حياة من خلقه من الفناء وانقطاع الحياة عند مجيء أجله، فأخبر عباده أنّه المستوجب على خلقه العبادة والإلوهية، والحيّ الّذي لا يموت ولا يبيدُ، كما يموت كلّ من اتّخذ من دونه ربّاً. [١٥]

هـ- إثبات صفة الرزق له تعالى ونفي ضدّها: ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴿١٤﴾ ﴾(الأنعام).

فقد نفي الفعل (يُطعَم)، في جملة جاءت معطوفة على الجملة المثبتة (وهو يطعم)، وقد وقعت خبراً عن الضمير الظاهر المنفصل (هو) العائد عليه (عزّ وجلّ)، والمعنى أنّه تعالى يَرزق خلقه ولا يُرزق. [١٦]، فهو سبحانه غير محتاج إلى ما يحتاجه المخلوقون من الغذاء[١٧]. وخصّص الطعام بالذكر؛ لشدّة الحاجة إليه، أو لأنّه معظم ما يصل إلى المرزوق من الرزق. [١٨] فدخول (لا) هنا على الفعل المضارع، أفاد نفياً لا يستلزم إمكانه، وسيق هنا دليلاً على أنّ الله فاطر السماوات والأرض، الرزّاق العظيم، هو المستحقّ دون غيره أن يُتّخذ وليّاً. فهذه جملة حاليّة مضمونها مقرّر لوجوب اتّخاذه سبحانه وتعالى وليّا. [١٩]

و- نفي ضرّ المشركين له تعالى: جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾(هود)

فقد نفي ضرّ المشركين له تعالى بشركهم، والمعنى: لا تضرّون الله تعالى بتولّيكم شيئاً[٢٠]، وقد ورد فعل الضرّ المنفيّ بصيغة المضارع المسند إلى ضمير المشركين، الناصب لكلمة (شيء) الّتي جاءت منكّرة لغرض التقليل، لتأكيد التنصيص على العموم بنفي الضرّ، فهو نكرة في حيّز النفي، والمعنى: أنّكم لا تقدرون له على أقلّ ضرّ، حتّى إذا أراد إهلاككم، واستئصالكم، وهو أعظم الضرّ [٢١].

و- نفي خفاء الأشياء عنه تعالى وإثبات صفة العلم له: ومن المواضع الّتي ورد فيها هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ ﴾ (آل عمران).

ورد الجملة الفعليّة المنفيّة بـ(لا) متصدّرة بالفعل المضارع (يخفى) نافية إيّاه، وقد وقعت خبراً لـ(إنّ) المؤكّدة، والمعنى: إنّه تعالى لا يخفى عليه أيّ شيء، مهما كان، وأينما كان، في السماء أو في الأرض، فهو علاّم بجميع الأشياء، وقد أشار الطبريّ إلى أن الغرض من هذه الآية هو التنبيه على أنّه تعالى لا يضاهي به هؤلاء الّذين يجادلونك في آيات الله من نصارى نجران في عيسى بن مريم في مقالتهم التي يقولونها فيه ... قد علم ما يريدون وما يكيدون وما يضاهون بقولهم في عيسى، إذ جعلوه ربّاً وإلهاً، وعندهم من علمه غير ذلك غرّة بالله وكفراً به. [٢٢] وبذا يتبيّن أنّ في هذا النفي إثباتاً لعلمه تعالى بكلّ شيء، فهو

الخلاّق العليم بخلقه، وفي هذا تنبيه على أنّ الله تعالى عالم بما يدّعيه من كفر به من افتراء وكذب.

ومن المواضع الّتي ورد فيها هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام).

فالجملة المنفيّة (لا يعلمها إلاّ هو) في موضع الحال من (مفاتح الغيب)[٢٣]، المبتدأ الّذي قُدِّم خبره عليه تخصيصاً، فهي عند الله تعالى لا عند غيره، وليس يعلمها أحد سواه. فجملة الحال هذه مؤكّدة لمضمون الجملة الّتي وقع فيها صاحب الحال (وعنده مفاتح الغيب)، والمراد بها هو الاختصاص من حيث العلم ... [٢٤]، فالنفي هنا نفي مطلق غير محدّد بزمن، جاء ضمن أسلوب للحصر، يعدّ أقوى أساليبه، لأنّه بالنفي والإثبات[٢٥]. فجاءت هذه الجملة مؤكّدة لمضمون الجملة الّتي سبقتها، وبيان أنّه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبيّة الّتي استأثر بعلمها الله تعالى، فهو تعالى المتفرّد بعلم الغيب[٢٦].

وعلى ما ورد من المعاني المنفيّة بـ(لا)، الّتي جاءت في الآيات السابق ذكرها يتبيّن أنّ ما نفي بهذه الأداة عنه سبحانه، من المعاني الّتي هي ضدّ لصفات الكمال بدخولها على الأفعال المضارعة، كانت (لا) فيه دالّة على الزمن المطلق في النفي الّذي لا يمكن أن يتحدّد بزمن بعينه؛ لأنّ هذه المعاني هي حقائق قديمة لا تتغيّر أبداً، وقد جاء النفي لها في سياقات دالّة على إثبات صفات الكمال له تعالى، وهذه الصفات الّتي أثبتت من خلال ما ورد من المعاني السابقة يمكن تلخيصها بما يأتي: إثبات وحدانيّته تعالى بنفي الشريك، وإثبات أنّه حيّ قيّوم بنفي السنة والنوم والموت عنه سبحانه، وإثبات عظمته بنفي إدراك الأبصار له، وإثبات أنّه رزّاق للخلق ومطعم لهم مع نفي ضدّها، وإثبات استغنائه عن المشركين بنفي ضرّهم له تعالى في إشراكهم، وإثبات صفة العلم له بنفي خفاء الأشياء له.

٢ـ إبطال ما يعبد من دونه تعالى:

ونجد هذا في المعاني الآتية:

ا- نفي الوليّ والنصير من دون الله تعالى:وقد ورد هذا المعنى في قوله تعال: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النساء).

فقد نفي الوليّ والنصير عمّن يعمل السوء، وقد جاء هذا النفي بنفي الفعل المضارع (يجد)، المسند إلى الضمير المستتر العائد على (من يعمل سوءاً)، وجاء مفعوله وما عطف عليه نكرتين، لغرض تعميم المنفيّ وتوكيد نفيه. فمن يعص الله تعالى، ويعمل خلاف ما أمر به، لا يجد من دونه وليّاً يحميه ممّا ينزل به من عقوبته تعالى، ولا ناصراً ينصره ممّا يحلّ به من عقوبة الله، وأليم نكاله. (٢٧)

ومثل هذا المعنى جاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ (الأحزاب).

والمعنى: لا يستطيع أحد أن يمنعكم منه تعالى إن أراد بكم سوءاً، أي: هلاكاً، أو أراد بكم رحمة، أي: خيراً ونصراً وعافية. ولا يجدون لهم من دون الله ... لا قريباً ينفعهم ولا ناصراً ينصرهم. (٢٨) فقد نفي الوليّ والنصير في هذه الآية عن المشركين بأداة النفي (لا)، بدخولها على الفعل المضارع (يجد) المسند إلى الضمير العائد عليهم، متعدّياً إلى المفعول المراد نفيه، وهو(وليّاً)، معطوفاً عليه بـ (نصيراً)، وأعيدت (لا) بين المتعاطفين، مؤكّدة لهذا النفي.

ب- نفي الضر والنفع عمّن أشركوا بعبادة الله تعالى: ومن المواضع الّتي ورد فيها هذا النفي، قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ (المائدة).

بدأت الآية بأمر النبيّ ﷺ بخطاب النصارى على دعواهم في نبيّهم، والإنكار عليهم عبادتهم من لا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً، والمعنى: أنّ المسيح ...لا يملك لهم ضرّاً يدفعه عنهم ... ولا نفعاً يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم ... (٢٩) وفي هذا نفي للقدرة عنه(٣٠). أمّا فائدة العطف بقوله (ولا نفعاً)، فهي الزيادة في البيان وإقامة حجّة عليهم، أي: أنتم مقرّون أنّ عيسى كان جنيناً لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم، ولا يضرّ ولا ينفع فكيف اتّخذتموه إلهاً، والله هو السميع العليم، أي لم يزل سميعاً عليماً يملك الضرّ والنفع... (٣١) فالربّ المعبود هو الّذي

بيده كلّ شيء والقادر على كلّ شيء، فإيّاه فاعبدوا، وأخلصوا له العبادة دون غيره من العجزة الّذين لا ينفعونكم ولا يضرّون [٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴿٧١﴾ ﴾ (الأنعام).

وفي هذا تنبيه من الله تعالى لنبيّه ﷺ على حجّته على مشركي قومه فالمعنى قل يا محمّد لهؤلاء ...الآمرين لك باتّباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا أو ضرّنا، فنخصّه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الّذي بيده الضرّ والنفع والحياة والموت [٣٣] وقد ابتدأ القول بالاستفهام الّذي جاء للتوبيخ[٣٤].

ج- نفي السمع والبصر عنهم: قال تعالى:﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ (الأعراف).

في هذا السياق البديع المحكم، جاءت (لا) نافية ين المضارعين المضارع (يسمع) و(يبصر) المسندين إلى ضمير الجماعة المتّصل به، العائد على الأوثان الّتي عبدها الكفّار والمشركون، وقد وقعت الجملة الّتي نفي فيها السمع جواباً لشرط متضمّن دعاءهم، فهم لا يسمعون دعاء من يدعوهم. أمّا الجملة الّتي نفي فيها البصر عنهم، فقد وقعت خبراً عن ضميرهم الّذي وقع مبتدأ في جملة اسميّة، وقعت حالاً عنهم، فمن يراهم يجدهم كالناظرين إليه؛ لأنّهم صوروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه [٣٥]، فهم عاجزون عن السمع والإبصار.

وقال تعالى:﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ (مريم).

جاء هذا النفي على لسان نبيّ الله تعالى إبراهيم ﷺ، وذلك عن طريق نفي الفعلين المضارعين (يسمع) و(يبصر)، في سياق جملة استفهاميّة، منكراً على أبيه عبادة الأصنام من دون الله تعالى، المعنى: لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر، فيعرف حالك ويسمع ذكرك ويرى خضوعك، ولا يغني عنك شيئا في جلب نفع أو دفع ضرّ. فمن خلال هذا النفي بيّن العلّة الّتي تدعو إلى ترك عبادة ما ما يستخفّ به العقل الصحيح، إذ لا تحقّ إلاّ للخالق الرزّاق السميع البصير[٣٦].

د- نفي استجابتهم للدعاء: وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤ ﴾ (الرعد).

دخلت (لا) النافية على الفعل المضارع (يستجيب)[٣٧] المسند إلى العائد على من دعي من دونه تعالى، لتنفي عنه استجابته لمن دعاه، وقد تعدّى هذا الفعل إلى مفعوله (شيء) بالباء، وقد ذكر ابن عاشور أنّ هذه التعدية تؤكّد عدم إجابة المأمول؛ لأنّ هذا الفعل إذا أريد منه إجابة المرجوّ، اقتُصر عليه، فلم يتعدّ إلى شيء، فهؤلاء المدعوّون من دونه تعالى عن إجابتهم للدعاء، ولو كان المدعوّ شيئاً حقيراً، وهو ما يشير إليه تنكير (شيء)، والمراد بباسط كفّيه: من يغترف ماء بكفّين مبسوطتين غير مقبوضتين... شبّه حال المشركين في دعائهم للأصنام وجلب نفعهم وعدم استجابة الأصنام لهم بشيء بحال الضمآن، يبسط كفّيه يبتغي أن يرتفع الماء ... إلى فمه ليرويه وما هو ببالغ إلى فمه بذلك الطلب، فيذهب سعيه وتعبه باطلاً [٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ ﴾ (الأحقاف).

وفي هذه الآية ورد نفي الاستجابة عن الأوثان في سياق الاستفهام الإنكاري، فليس هناك أضلّ من الّذين تركوا دعاء السميع المجيب، ولجأوا إلى دعاء من لا يجيبهم، وهم غافلون عن دعائهم[39]؛ لأنّهم إمّا جمادات لا تسمع ولا تبصر، أو عباد مشتغلون بأنفسهم[٤٠]، فلو دعوهم عمر الدنيا كلّه ما استجابوا لهم فإذا كان من سوى الله لا يستجيب إلى يوم القيامة، فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله. فبطل تعلّق هؤلاء العابدين بمعبوداتهم [٤١] والمراد بهذا الاستفهام الإنكاريّ توبيخ المشركين في فعلهم هذا[٤٢].

هـ- نفي القدرة على الهداية عنهم: جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥ ﴾ (يونس).

في هذا التركيب البديع، من استفهامات متوالية، يأتي نفي الهداية عمّا يتّبعه المشركون من دونه تعالى، وقد جاء الاستثناء المفرّغ من اعمّ الأحوال تهكّماً من حالهم[٤٣]،

أي: لا يهتدي أولا يهدى غيره في حال من الأحوال إلا حال هدايته تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير. (٤٤)

و- نفي القدرة على الخلق عن معبودات الكفّار: وممّا جاء من ذلك قوله تعالى ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ (الأعراف).

جاء نفي الخلق عنهم ضمن جملة استفهاميّة جاءت لتوبيخ وتضعيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يقدر على شيءٍ، وهو مخلوق، والمخلوق لا يكون شريكاً(٤٥). وقد جعل المفعول (شيئاً) نكرة، لإفادة العموم(٤٦).

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل).

وقد ورد النفي هنا في سياق استفهام إنكاريّ، فكيف يُساوي المشرك الخلاّق القدير، الّذي ينعم عليكم هذه النعم العظيمة، ويُشرِك به ما لا يقدر على خلق شيء، فالغرض من هذا الإنكار هو تنبيههم على عظم جهلهم وسوء نظرهم لأنفسهم وقلّة شكرهم لمن أنعم عليهم (٤٧).

ز- نفي القدرة على النصر عنهم: وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ (الأعراف).

وردت (لا) في (لا يستطيعون) نافية للمضارع، وقد جاء مفعوله نكرة، لعمومه، فهم لا يقدرون على نصرهم، في أيّ حال أو موضع، وفي أيّ وقت يحتاجون فيه إلى نصرٍ من أحد؛ وهذا التركيب أدلّ على هذا المعنى من (لا ينصرونهم). كما أنّهم عاجزون حتّى عن نصر أنفسهم، فكيف ينصرون غيرهم. وبذلك يظهر عجزهم، فأنّى يستحقّون العبادة!(٤٨)

ح- نفي الرزق عنهم: قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (العنكبوت).

في سياق الإخبار عن اسم إنّ، الّذي يشير إلى ما يعبده المشركون من دون الله تعالى، ورد نفي الرزق عنهم، وذلك بنفي الفعل المضارع (يملك) المسند إلى ضميرهم، المتعدّي إلى مفعوله (رزقاً). وقد نكِّر للتعميم(٤٩). وقد أثبت الرزق لله وحده في الجملة الّتي تليها، ومعنى الآية: إنّ أوثانكم الّتي تعبدونها لا تقدر أن ترزقكم شيئاً ... فالتمسوا عند الله الرزق،

لا من عند أوثانكم، تدركوا ما تبتغون من ذلك... وذلّوا له واشكروا له على رزقه إياكم ونعمه الّتي أنعمها عليكم [٥٠].

ط- نفي الشفاعة عنهم: وقد ورد ذلك المعنى صريحاً في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (الزخرف).

نفيت الشفاعة عمّن يدعوهم المشركون من دون الله تعالى، بنفي الفعل (يملك) المسند إلى فاعله الاسم الموصول، الّذي يشير إليهم من خلال صلته، المتعدّي إلى مفعوله المقصود بالنفي، وهو (الشفاعة)، ردّاً على زعمهم أنّهم شفعاؤهم عند الله [٥١] والمعنى: ولا يملك هؤلاء الشفاعة إلا لمن شهد بالحق وآمن على علم وبصيرة [٥٢] ويجوز أن يكون المعنى: ولكن من شهد بالحقّ يشفع فيه من أذن له الرحمن بالشفاعة، ويجوز أن يكون المستثنى منه محذوفا أي: لا يملكون الشفاعة في أحد إلا فيمن شهد بالحق [٥٣].

ونفي نفع الشفاعة دون إذنه في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (طه) فقد نفي الفعل (تنفع) المسند إلى (الشفاعة) فاعلاً له، فنفي عنها نفعها، وقد استثني من هذا الحكم ما جاء بعد أداة الاستثناء، وهو (من أذن له الرحمن...)، والتقدير: إلاّ شفاعة من أذن له الرحمن...، أو إلاّ من أذن في أن يشفع له فإنّ الشفاعة تنفعه. [٥٤] أو: إلاّ لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له، وكان له قول يرضى [٥٥].

٣ـ بيان ضلال الكافرين:

ويتبيّن ذلك من المعاني الآتية:

ا- نفي هدايته تعالى للكافرين وأوليائهم: وقد ورد نفي هذا المعنى بـ(لا) داخلة على الفعل المضارع (يهدي)، في مواضع عدّة، منها قوله ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ (الزمر) فقد جاء فعل الهداية المنفيّ بـ(لا) مضارعاً، وقعت جملته خبراً لـ(إنّ). وقد جاءت الجملة المؤكّدة بها مستأنفة بعد ذكر حكم الله بين من اتّخذ من دونه أولياء، مدّعين أنّهم يقرّبونه إليه تعالى، وقد نفيت عنه هدايته تعالى موصوفاً بصفتي الكذب والكفر، جاء موضعهما خبراً عن مبتدأ في سياق جملة اسميّة وقعت صلة للموصول، للدلالة على ثبوت هاتين الصفتين فيمن نفيت عنهم هدايته تعالى. ووصف بصفة الكذب؛ لأنّه كذب في زعمه أنّ

الأوثان الّتي يدعوها تقرّبه إلى الله زلفى. وبالكفر؛ لأنّه اتّخذها آلهة، وجعلها شركاء له تعالى[٥٦].. والمعنى: أنّ من سبق له القضاء بالكفر لم يهتد، أي للدين الّذي ارتضاه وهو دين الإسلام [٥٧] فلا يوفّقه الله تعالى للاهتداء إلى الحقّ[٥٨].

وورد نفي هدايته تعالى عمّن يتولّى الكافرين، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ (المائدة) إذ جاء الفعل المضارع (يهدي) منفيّاً بـ (لا)، في سياق جملة وقعت خبراً لـ(إنّ) الّتي جاءت مؤكّدة الإخبار عنه تعالى بأنّه لا يهدي الظالمين من البشر. وهذه الجملة الخبريّة المؤكّدة جاءت مستأنفة بعد نهي المؤمنين عن تولّيهم لليهود والنصارى، والتحذير من ذلك. وقد ورد نفي الهداية لمن يواليهم، ووصفهم بالظالمين[٥٩]، والمعنى: إنّه تعالى لا يهدي الّذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفّار، أو المؤمنين بموالاة أعدائهم [٦٠]؛ وذلك أنّهم وضعوا الموالاة في غير موضعها، وذلك أنّه والى أعداء الله ورسوله والمؤمنين، فإنّ من تولاّهم فهو لله ولرسوله وللمؤمنين حرب. [٦١]

ب- نفي التذكّر عن المشركين: قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ (يونس).

وردت (لا) لنفي التذكّر هنا في سياق جملة ابتدائيّة، ابتدأت باستفهام، جاء لغرض إنكار انتفاء تذكّرهم، إذ أشركوا معه غيره، ولم يتذكّروا في أنّه المتفرد بخلق العوالم، وبملكها وبتدبير أحوالها، فالغرض البيانيّ من هذه الجملة الابتدائيّة هو التقريع، وقد ذكر ابن عاشور أنّه غرض جديد [٦٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ (النحل).

ورد هذا النفي في سياق الاستفهام بالهمزة، وقد جاء هذا الاستفهام لغرض التوبيخ، والمعنى: أفلا تذكّرون نعم الله عليكم، وعظيم سلطانه، وقدرته على ما شاء، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها، وأنّها لا تجلب لنفسها نفعاً، ولا تدفع عنها ضرّاً، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه... [٦٣].

ج- نفي العقل عنهم: ومن المواضع الّتي ورد فيها هذا المعنى قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (البقرة).

إذ أسند الفعل المنفيّ (يعقل) إلى ضمير الآباء، وقد جاء خبراً عن الفعل (كان)، الدالّ على المضيّ، فهو أمر مضى وقطع فيه، وعلى الرغم من ذلك ترك المشركون اتّباع ما أنزل الله ربّهم وخالقهم، وأصرّوا على اتّباع ما وجدوا عليه آباءهم. وهم الّذين لا يدركون شيئاً، ولا يهتدون إلى شيء، فلو أدركوا لعرفوا الحقّ وهو بيّن؛ لذا كان النفي في هذه الآية مبالغة في إلزامهم بالخطأ في اتّباع آبائهم من غير تبصُّر ولا تأمُّل ... لأنّ لآبائهم عقولاً لا تدرك شيئاً [٦٤] ويتبيّن في هذه الآية الذمّ الحاصل للّذين أبوا أن يتّبعوا ما أنزل الله تعالى[٦٥]. وفيها دليل قاطع على وجوب مخالفة الآباء والأجداد والعشيرة، في كلّ ما يتعارض مع ما أنزله الله تعالى، وأمر به.

د- نفي العلم وإثبات الجهل لهم: قال تعالى:﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (يونس).

ورد النفي بـ (لا) في هذه الآية في سياق الاستفهام بالهمزة، الّذي جاء لغرض الإنكار، وهو يتضمّن النهي عن الافتراء على الله تعالى [٦٦] وفيه توبيخ وتقريع على جهلهم واختلافهم. والمعنى: أتقولون على الله تعالى قولاً لا تعلمون حقيقته، بغير دليل، أو حجّة، أو برهان[٦٧]!

قال تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (النمل).

ومعنى الآية: أعبادة ما لا يضرّ ولا ينفع خير أم الّذي جعل الأرض لكم مستقراً، وجعل فيها الأنهار، والجبال ثابتة، وجعل بين البحرين حاجزاً بين العذب والملح، فلا يفسد أحدهما صاحبه. فأنّى تشركون به ما لا يقدر على شيء! بل أكثر المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله، وما عليهم من الضر في إشراكهم، وما لهم من النفع في توحيدهم الله، وإخلاصهم له العبادة، وبراءتهم من كل معبود سواه. [٦٨] وقد وقع النفي في جملة وقعت خبراً لمبتدأ سبقه

حرف الإضراب (بل)، وقد عطفت الجملة على جملة الاستفهام الإنكاريّ: (أإله مع الله)، وهذا النفي يفيد إثبات جهلهم لله تعالى إذ يشركون به، فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية. (٦٩)

هـ- نفي السمع والبصر عن المشركين: وقد جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (القصص)

وقد ورد فعل السمع المنفيّ بـ(لا) بصيغة المضارع، مسبوقاً باستفهام. وهذه الجملة معطوفة على الجملة المتضمّنة للاستفهام الإنكاريّ، لنفي وجود من يقدر على الإتيان بضياء، غير الله تعالى. والمعنى: من معبود غير الله تعالى قادر على أن يأتيكم بضياء، إن جعل الله عليكم الليل دائماً لا يزول أبداً، أفلا تسمعون، فتتعظون وتعلمون أنّ ربّكم هو الّذي يأتي بالليل ويذهب بالنهار إذا شاء، وإذا شاء أتى بالنهار وذهب بالليل (٧٠) وقد تليت هذه الآية مباشرة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (القصص) وفي هذه الآية تذكير بنعمة أخرى من نعم الله تعالى، وهي الليل، فلو لم يخلقه الله تعالى، وجعل النهار دائماً لا ليل معه أبداً إلى يوم القيامة، فمن إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه استراحة من متاعب الأشغال... أفلا تبصرون هذه المنفعة الظاهرة التي لا تخفى على من له بصر. (٧١) فقد جاء نفي السمع والبصر مباشرة بعد التذكير بنعمتي الليل والنهار، في سياق استفهاميّ له أثره في تنبيه المخاطب والسامع، وإعمال ذهنه في هاتين النعمتين؛ وفي قدرة الله تعالى، وعجز من اتّخذه الكفّار شركاء له سبحانه، ليأتي النفي بعدهما في جملة استفهاميّة، يفهم منها تعجيب للسامع من حال من نفيت عنه هاتين الصفتين، وتوبيخ لمن فقدهما، وتقريع له، وإنكار لحاله، ودعوة له إلى الاستجابة والتفكّر، ليسمع فيفهم، ويبصر فيقرّ ويستجيب؛ فلا حجّة له إن أعرض بعد هذا.

و- نفي مغفرة الشرك: وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (النساء).

فقوله (أن يشرك)، مؤوّل بمصدر، تقديره (شركاً به)(٧٢)، وهو في موضع نصب على أنّه مفعول به للفعل (يغفر) على أن يكون معناه: إنّ الله تعالى لا يغفر الشرك به والكفر، ويغفر ما دون ذلك الشرك لمن يشاء من أهل الذنوب والآثام. ويجوز أن يكون موضعه النصب

على نزع الخافض، فيكون المعنى إنّ الله لا يغفر بأن يشرك، على تأويل الجزاء، كأنّه قيل: أنّه تعالى لا يغفر ذنباً مع شرك، أو عن شرك[٧٣]. وهو بيان لاستحالة المغفرة بدون التوحيد والإيمان فهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التحريف، ويطمعون في المغفرة ... [٧٤] وبهذا يتبيّن أنّ الشرك أعظم الذنوب؛ إذ أخبر الله تعالى أنّه لا يغفره لمن لم يتب منه. والسبب في ذلك هو أنّ الشرك جناية واعتداء على حقّ الله الخاصّ، وهو التوحيد. [٧٥]

وهذا المعنى ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ (النساء).

ز – نفي فلاح المشركين: ومن المواضع الّذي ورد فيها هذا نفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (يونس).

وردت (لا) في هذه الآية نافية الفعل المضارع (يفلح) المسند إلى الضمير العائد على (الّذين يفترون على الله الكذب)، وقد جاءت الجملة المنفيّة هذه في موضع خبر (إنّ)، الّتي افتتحت بها جملة مقول القول، وجملة القول مستأنفة، ابتدأت بفعل الأمر (قل)، والمأمور هو نبيّنا الكريم ﷺ، وفي افتتاح هذه الجملة بهذا الفعل تنبيه على أنّ ما يرد بعده هو أمر مهمّ بحيث يطلب تبليغه [٧٦] وهو أنّ المفترين على الله الكذب باتّخاذ الولد وإضافة الشريك إليه (لا يفلحون) لا ينجون من النار، ولا يفوزون بالجنّة [٧٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (المؤمنون).

إذ نفي الفعل (يفلح) مسنداً إلى فاعله الصريح، وهو الكافرون، فقد نفت (لا) الفلاح عن الكافرين، في جملة وقعت خبراً لـ (إنّ) الّتي جاء اسمها ضمير شأنٍ ظاهراً، متّصلاً بها، والمعنى إنّ الشأن [٧٨] هو نفي نجاح الكفر بالله تعالى عنده، إذ لا يدركون الخلود والبقاء في النعيم [٧٩].

ح– نفي شكر أكثر العباد له تعالى: وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يوسف).

ورد نفي الشكر عن أكثر الناس من خلال نفي فعله المضارع، المسند إلى الضمير

العائد عليهم، وقد جاء هذا في سياق الاستدراك بـ(لكنّ) والغاية من هذا الاستدراك هي الدلالة على أنّ المخاطبين في إشراكهم كالّذي يكفر نعمة الله؛ وذلك أنّ إرسال الله تعالى للرسل إلى الناس نعمة ينبغي أن ينظر الناس فيها(٨٠)، ولأنّ الإعراض عن النظر في أدلّة صدق الرسل كفر بنعمة العقل والنظر (٨١).

٤ـ بيان فلاح الموحدين:

ويتبيّن هذا الأمر من المعاني الآتية:

١- نفي الشرك عن الأنبياء والمؤمنين: ومنه ما جاء في قوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (يونس).

إذ جاءت الجملة المنفيّة بـ(لا) جواباً للشرط، وفيها دلالة عليه في المعنى، والتقدير: إن كنتم تشكّون في ديني فأنا على يقين من فساد دينكم، فلا أتّبعه، فلا أعبد الّذين تعبدونه، بل أعبد الله وحده ... فهذا الجواب ابتدأ بنفي عبادة النبيّ ﷺ للأصنام، يتبعه إثبات عبادته لله تعالى، وهذا الجمع بين النفي والإثبات قائم مقام القصر، الّتي عدل عنها لأنّ من شأنها أن حذف المنفيّ استغناء عنه بالمثبت، وذلك حين يكون الغرض الأصليّ هو الإثبات، وقد عدل عن هذه الصيغة؛ لأنّ الطرف المنفيّ هو الأهمّ، وهو إبطال عبادة الأصنام (٨٢).

ومن المواضع الّتي نفي الشرك فيها عن المؤمنين في قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (المؤمنون) فقد نفي الفعل (يشرك) المسند إلى الضمير العائد على صلة الموصول، الّذي جاء مع صفته لتتبيّن من خلاله هذه الصفة للمؤمنين. وقد جاءت الجملة الفعليّة المنفيّة في موضع الخبر عن المبتدأ الّذي جاء ضميراً منفصلاً عائداً على المؤمنين (هم)، وهو تركيب يفيد من التوكيد في نفي الإشراك عنهم ما لا يفيده في حالة الضمير الّذي وقع مبتدأ(٨٣)، ومعنى نفي الشرك عنهم، هو أنّهم يخلصون لربّهم عبادتهم، فلا يجعلون له فيها لغيره شركاً لوثن ولا لصنم، ولا يراءوا ون بها أحداً من خلقه، ولكنّهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصاً، وإيّاه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كلّ شيء سواه (٨٤) فهم لا يعبدون مع الله تعالى غيره، بل يوحّدونه، ويعلمون أنّه لا إله إلاّ الله أحد صمد، لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً وأنّه لا نظير له (٨٥).

ب- نفي الاستكبار عمّن يعبد الله تعالى: من المواضع الّتي ورد فيها هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (النحل).

وقعت الجملة الّتي نفي فيها الاستكبار عمّن يعبده تعالى، ويسجد له، خبراً للمبتدأ (هم)، الّذي تصدّر جملة اسميّة وقعت حالاً لما في السماوات والأرض، في سياق الإخبار عن سجودهم له عزّ وجلّ. وتصدّر الجملة بالمبتدأ يزيد من نفي الاستكبار عنه قوّة وتأكيداً. ومعنى الآية: لله يخضع ويستسلم لأمره ما في السماوات، وما في الأرض من دابّة تدبّ عليها، ومن الملائكة الّتي فيهما وهم لا يستكبرون عن التذلّل له والطاعة [٨٦] وقد جاء هذا الإثبات لسجودهم وعبادتهم له تعالى، ونفي الاستكبار عنهم ردّاً على قريش في زعمهم أنّ الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عمّا يصفون[٨٧].

٥ـ خروج النفي إلى معنى النهي

ورد النفي بـ (لا) دالاّ على معنى النهي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾(البقرة:٨٣).

فـ(لا) في قوله: (لا تعبدون إلاّ الله) نافية، وهي جملة خبريّة معناها النهي، وهو: لا تعبدوا [٨٨]. وهو هنا أبلغ من النهي الصريح؛ فكأنّ النهيّ سورع في الانتهاء عنه، فيخبر به الناهي [٨٩]. وعبادة الله تعالى إثبات توحيده وتصديق رسله والعمل بما أنزل في كتبه الثانية. [٩٠] أمّا موضع الجملة المنفيّة، فقيل أنّه النصب على الحاليّة، أي: أخذنا ميثاقهم موحّدين أو غير معاندين. وقيل أنّه في موضع نصب على نزع الخافض، والمعنى: أخذنا ميثاقهم بألاّ يعبدوا إلاّ الله، وبأن يحسنوا للوالدين وبألاّ يسفكوا الدماء، ثمّ حذفت (أن) والباء، فارتفع الفعل لزوالها[٩١].

المبحث الثاني
لا النافية للجملة الاسميّة

وسأدرسها في فقرتين هما:

١ـ(لا) الرافعة للمبتدأ:

جاءت (لا) النافية للجملة الاسميّة مرفوعاً ما بعدها، في مواضع قليلة من آيات التوحيد، قد عطفت على جملة فعليّة سابقة لها، وسأبيّن المعاني الّتي أفادها بما يأتي:

ا- نفي الصحبة منه تعالى لأوثان المشركين: ورد ذلك في قوله تعالى:﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الأنبياء) إذ جاءت الجملة الاسميّة المنفيّة بـ(لا) معطوفة على جملة فعليّة منفيّة أيضاً بأداة النفي نفسها. فالأولى فيها نفي القدرة عن الأوثان في على نصر أنفسها، والثانية نفيت عنهم الصحبة من الله تعالى، وهي الإجارة[٩٢]. وفي هذا النفي إبطال لما اعتقده المشركون في هذه الأوثان، فإنّ من لا يقدر على نصر نفسه، ولا يصحبه نصر من الله، فكيف ينصر غيره [٩٣].

ب- نفي نصر الأولياء والأقرباء بعضهم بعضاً يوم البعث والحساب: وذلك في قوله تعالى:﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (الدخان).

فالجملة المنفيّة (هم ينصرون)، جملة اسميّة، ابتدأت بالضمير (هم) العائد على فاعل يغني، وهو (مولى)[٩٤]، وهو نكرة دالّة على العموم[٩٥] والمعنى: لا يدفع ابن عمّ عن ابن عمّ، ولا صاحب عن صاحبه شيئاً من عقوبة الله الّتي حلّت بهم من الله ... ولا ينصر بعضهم بعضاً فيستعيذوا ممّن نالهم من عقوبة، كما كانوا يفعلونه في الدنيا [٩٦] وفي ابتداء الجملة المنفيّة بضمير المبتدأ زيادة في نفي وإبطال النصر عمّن أشار إليهم هذا الضمير.

ج- تحقيق البراءة من الكفّار: وقد ورد هذا في قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ ﴾ (الكافرون).

جاء هذا النفي في سياق خطاب المشركين، فبدأت الجملة المنتفيّة بالضمير (أنتم) الّذي يشير إلى الكافرين، الّذين ذكروا في أوّل السورة، فكان هذا الضمير هو المبتدأ، خبره

المنفيّ عنه اسم الفاعل من العبادة (عابدون)، فقد نفيت عنهم عبادتهم لله تعالى الّذي يعبده النبيّ ﷺ والمسلمون، فهم ليسوا من ملّته، وقد أكّد ذلك النفي بجملة عطفت عليها نفت عنه ﷺ عبادته لأوثانهم، وقد كان المبتدأ فيها ضمير النبيّ ﷺ في صيغة المتكلّم، ثمّ أعيدت الجملة الأولى الّتي تخصّ الكافرين، معطوفة على الجملة الخاصّة به ﷺ ومن اتّبعه من المسلمين، توكيداً[٩٧] لخروجهم من ملّة الإسلام. فالمعنى: ما عبدتم قطّ ما أنا عابده، فلا أعبد الباطل، وأنتم لا تعبدون الحقّ، وقد ذكر القرطبيّ أنّ في هذا نفي العبادة عنهم معنى التهديد، فالمعنى: إن رضيتم بدينكم، فقد رضينا بديننا. [٩٨]

٢ـ لا النافية للجنس:

تدخل على المبتدأ والخبر، لتنصب المبتدأ وترفع الخبر. وقد ذكر النحويّون أنّ اسمها إن لم يكن عاملاً، فحكمه البناء على ما ينصب له في محلّ نصب. وذكروا أنّ سبب البناء هو تضمّنه معنى (من) الاستغراقيّة، وقيل: لتركّبه مع (لا) تركّب (أحد عشر)[99]. فمن ذهب إلى القول الأوّل جعل سبب بنائه هو تضمّنه معنى الحرف، وهو (من) الّتي تفيد الاستغراق، وهو سبب عقليّ، إذ جعل النحويّون سبب بناء الأسماء شبه الحروف. ومن ذهب إلى القول الثاني ذهب إلى أنّ اسم (لا) متركّب معها، فصارا كالكلمة الواحدة، ولعلّ في هذا القول إشارة إلى قوّة النفي بها، حتّى صار جزءاً من النفي نفسه، ومن هنا ندرك سبب اشتراط التنكير في اسمها؛ فالاستغراق في نفي الجنس يتناسب والشمول الّذي يفيده التنكير للأسماء. أمّا اشتراط عدم الفصل بينها وبين اسمها بفاصل[١٠٠]، فلأنّ النفي بها من القوّة بصورة يصير بها المنفيّ كأنّه جزء منها، فلا يمكن أن ينفصل عنها[١٠١]، فهو يعدّ أقوى أنواع النفي في العربيّة؛ لذا أطلق عليها اسم (لا) التبرئة[١٠٢]، إذ تدلّ على تبرئة الجنس من مدلول الخبر[١٠٣].

وقد جاءت (لا) النافية للجنس في آيات التوحيد للدلالة على المعاني الآتية:

١- توحيد الله المطلق: وقد جاء هذا المعنى في كلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله)، وهي تدلّ على نفي الإلهيّة عن كلّ ما سوى الله تعالى، كائناً ما كان، وإثبات الإلهيّة لله وحده دون ما سواه، وهذا هو التوحيد الّذي دعت إليه الرسل، ودلّ عليه القرآن من أوّله وآخره [١٠٤].

وهي كلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله تعالى؛ وذلك أنّك إذ نفيت الإلهيّة وأثبتّ الإيجاب له تعالى، كنت قد كفرت بالطاغوت، وآمنت بالله وحده[١٠٥]. فهذه

الكلمة تنفي كلّ شرك في أيّ نوع كان من أنواع العبادة، وتثبت العبادة بجميع أنواعها لله وحده(١٠٦).

وقد ورد هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (البقرة).

أي: لا معبود بحقّ إلاّ هو(١٠٧). والخطاب في هذه الآية عامّ، والمعنى: أنّ المستحقّ منكم العبادة– أيّها الناس– معبود واحد وربّ واحد، لا شريك له، فلا تعبدوا غيره، ولا تشركوا معه سواه، فإنّ من تشركون معه في عبادته هو خلق من مخلوقات الله سبحانه، وإلهكم إله واحد لا مثل له ولا نظير(١٠٨). وفي الآية معنى الإرشاد إلى التوحيد وقطع علائق الشرك، والإشارة إلى أنّ أوّل ما يجب بيانه، ويحرّم كتمانه، هو أمر التوحيد (١٠٩).

وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ (آل عمران).

فقد افتتح السورة تبارك وتعالى بتبرئة نفسه ممّا ادّعوه من الإشراك به سبحانه، وردّاً على ما ابتدعوه من الكفر وما جعلوا له من الأنداد؛ ليعرفوا بذلك ضلالتهم، فقال: الله لا إله إلاّ هو، أي: ليس معه شريك في أمره (١١٠).

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (يونس).

فكما يتبيّن من سياق الآية أنّ كلمة التوحيد هذه جاءت على لسان فرعون حين أدركه الغرق، وعلم أنّه لا محالة هالك، وقد ذكرها بالاسم الموصول؛ ليفيد مع اعترافه بالله تصويبه لبني إسرائيل فيما هدوا إليه، فجعل الصلة طريقاً لمعرفته بالله، ولعدم علمه بالصفات المختصّة بالله إلاّ ما تضمّنته الصلة، إذ لم يتبصّر في دعوة موسى تمام التبصّر، ولذلك احتاج أن يزيد: (وأنا من المسلمين) (١١١).

ب– نفي الشريك: ورد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الأنعام).

فقرّر أنّ صلاته وحياته ومماته لله دون غيره، تعريضاً بالمشركين، إذ كانوا يسجدون للأصنام؛ ولذلك أردف بجملة (لا شريك له) (١١٢) يعني أنّ كلّ ذلك لله تعالى خالصاً دون ما أشركتم به أيّها المشركون، لا شريك له في شيء من ذلك من خلقه، ولا

لشيء منهم فيه نصيب؛ لأنه لا ينبغي أن يكون ذلك إلا له خالصا ... وبذلك أمرني ربّي ... وأنا أوّل من أقرّ وأذعن وخضع من هذه الأمة لربّه بأن ذلك كذلك [١١٣] فقد نفت (لا) النافية للجنس الشريك عنه تعالى، دلالة على وجوب الإخلاص في عبادته، فضلاً عمّا فيها من توكيد دلالة على أنّ ما يشرك به المشركون في عبادتهم وما يتعلّق بها، كلّه باطل، كما أنّ في هذا النفي تشديد على إخلاص العبادة والنيّة في كلّ عمل له تعالى وحده، صلاة ونسكاً وحياة ومماتاً.

ج- نفي الشكّ عن يوم البعث: قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ ﴿٨٧﴾ ﴾ (النساء) فقد ابتدأت الآية بتقرير وحدانيّته تعالى، يليها الإخبار منه تعالى بأنّه جامع الناس إلى يوم القيامة، وقد جاءت (لا) النافية للجنس في سياق نفي الشكّ عن يوم القيامة، وقيل عن الجمع فيه[١١٤]، ولا فرق في بيان المراد في الحالتين، فإنْ نفي الشكّ عن الجمع يتضمّن نفيه عن يوم القيامة؛ لأنّه حاصل فيه، وإن نفي عن يوم البعث، ففيه سيكون الجمع. وعلى القول الأوّل تكون الجملة في موضع نصب حالاً عن يوم القيامة، وعلى القول الثاني تكون الجملة في موضع نصب صفة لمصدر الجمع المحذوف، والتقدير جمعاً لا ريب فيه[١١٥].

د- نفي المولى عن الكافرين وقد استعملت (لا) النافية للجنس لغرض نفي المولى عن الكافرين في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾ ﴾ (محمد) ومعنى الآية أنّ الكافرين بالله لا وليّ لهم ولا ناصر [١١٦] فقد نفي المولى عن الكفّار بـ(لا) النافية للجنس، وبهذا كان هذا النفي دالاّ على أنّ من ظنّوهم أولياء، ليسوا كذلك، وأنّ اعتقادهم هذا باطل، وقد جاءت جملة النفي هذه معطوفة على جملة سبقتها، وهي إخبار عن المؤمنين بأنّ ربّ العالمين، الخلاّق العظيم هو مولاهم. وبهذا كانت المقابلة بيّنة بين حال الفريقين. وفيها تنبيه على أنّ من تولاّه الله كان من الفائزين. ومن كان بلا مولى ينصره، فهو في خسران مبين، وهو حال الكافرين؛ لأنّهم لا مولى لهم فيدفع عنهم ما حلّ بهم من العقوبة والعذاب [١١٧].

هـ- نفي كشف الضرّ عمّن سواه تعالى: جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأنعام).

فوقعت جملة النفي هذا جواباً للشرط بـ (إن). ومعناها: وإن يمسسك الله بضرّ، ببليّة كمرض وفقر... فلا قادر على كشفه إلا هو. وإن يمسسك بخير، بنعمة كصحّة وغنى، فهو على كلّ شيء قدير، فكان قادراً على حفظه وإدامته، فلا يقدر غيره على دفعه [١١٨] فالمراد بالنفي هنا هو العموم الداخل ضمنه الأوثان الّتي أشركوا عبادتها بالله تعالى وهي المقصودة. [١١٩] فإذا كان الله تعالى هو النافع والضارّ، بيده النفع والضرّ يصيب بهما من يشاء، فأيّ جدوى يرجوها من يرجو غيره ويدعوه من دونه تعالى، وهو بيده كلّ شيء؟! وقد جاء هذا المعنى بعد النهي عن دعاء غيره الله، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (يونس).

و– نفي القوّة عن غيره تعالى: وردت (لا) النافية للجنس في معنى إثبات القوّة للعزيز الجبّار، ونفيها عن غيره في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الكهف).

وقعت (لا) هنا لنفي القوّة مطلقاً، وإثباتها لله تعالى وحده، في تركيب مؤكّد بالنفي والحصر بـ (إلاّ). وجاءت هذا الجملة ضمن خطاب المؤمن لمن كفر بنعمة ربّه، في أسلوب دالّ على التوبيخ الّذي دلّ عليه الأداة (لولا)، وفيه وصيّة له وردّ على قوله: ﴿ مَّآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾[١٢٠] فأمره أن يقرّ بأن ما عنده من نعمة كائن بمشيئته تعالى، إن شاء أبقاها، وإن شاء أخذها، وهو معنى قوله: (ما شاء الله). وأن يقرّ بعجزه على نفسه ويعترف به وبالقدرة لله[١٢١].

ز– نفي العاصم من دون الله: قال تعالى: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ ﴿٤٣﴾ ﴾ (هود).

فقد ورد هذا النفي على لسان نبيّ الله نوح ﷺ مخاطباً ابنه ورادّاً عليه، إذ لجأ إلى الجبل، ظنّاً منه أنّ سيعصمه من الماء، وقد تعرّض باحث إلى هذه الآية، وذكر أنّ بناء (عاصم) على الفتح بسبب استغراقه في النفي؛ لذا احتيج إلى أداة استثناء صريحة بعده[122]. والمعنى: لا مانع اليوم من أمر الله الّذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك إلاّ من رحمنا،

فأنقذنا منه، فإنّه الّذي يمنع من شاء من خلقه ويعصم [١٢٣] فقد ردّ بهذا النفي أن يكون هناك معتصم من جبل أو غيره يلاذ به، إلاّ معتصم المؤمنين، وهو الله تعالى[١٢٤].

ح- نفي البرهان والدليل عن المشركين: ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ (المؤمنون).

وقعت الجملة الّتي تصدّرها النفي بـ (لا) التبرئة في موضع الصفة لـ (إلهاً)، الّذي وقع مفعولاً للفعل (يدعو) الّذي وقع فعلاً للشرط بـ(من)، وهي صفة لازمة له، لأنّ كلّ باطل ليس له برهان. وفائدتها التأكيد والتنبيه على أنّ التديّن بما لا دليل عليه ممنوع. [١٢٥] وقيل: هي جملة اعتراضيّة وقعت بين الشرط وجوابه، تفيد الفائدة نفسها[١٢٦].

الخاتمة

وبعد انتهاء صفحات هذا البحث أستطيع أنّ أخلص إلى أنّ (لا) النافية للفعل في آيات التوحيد الّتي كثر دخولها على الفعل المضارع مفيدة للمعاني الآتية:

١- أنّها أفادت إثباتًا لصفات الكمال له تعالى بنفي ضدّها، فقد أثبتت وحدانيّته بنفي الشريك عنه تعالى، وأثبت أنّه حيّ قيّوم بنفي السنة والنوم والموت عنه عزّ وجلّ، وأثبتت صفة العلم له بنفي خفاء الأشياء عنه سبحانه.

٢- جاء النفي بها للدلالة على أنّ ما يعبد من دونه تعالى كلّه باطل، فقد نفي الضرّ والنفع عنهم، ونفي استجابتهم لدعاء من يدعوهم، ونفي عنهم السمع والبصر، والقدرة على الخلق وعلى الهداية والنصر والرزق لمن يدعوهم ويعبدهم، كما نفيت الشفاعة عنهم، والوليّ من الله تعالى. وفي نفي هذه المعاني دلالة على أنّ عبادة الكفّار ودعاءهم لأوليائهم، وعقيدتهم كلّها باطلة لا فائدة فيها، ولا نفع لها، بل هو ظلم من الكفار لأنفسهم، وشرّ ووبال عليهم، سيتلقّون جزاءه يوم يلقون ربّهم الواحد القهّار. وقد جاءت هذه المعاني في سياقات مؤكّدة، فيها تعميم للمعاني المنفيّة، وتغلب فيها معاني الإنكار والتوبيخ والتقريع والوعيد والتحذير.

٣- وممّا نفي بـ(لا) ما فيه بيان لضلال من كفر بربّه، فقد نفيت هدايته تعالى لهم ولمن تولاّهم، ونفيت عنهم صفات التذكّر والعلم والعقل والسمع والبصر والفلاح، وغلبت فيها معاني الذمّ والإنكار والتوبيخ والتقريع. كما نفي عنه تعالى مغفرته للشرك قطعاً.

٤- وممّا أفاده النفي بـ(لا) بيان صفات الموحّدين، وقد وجدت من ذلك نفيين لصفتين، هما نفي للشرك عنهم، وللاستكبار في عبادتهم لربّهم الواحد المتعال.

٥- ومّما أفاده هذا الأسلوب معنى النهي عن عبادة غيره تعالى، وهو معنى مجازيّ، يفيد المبالغة في الأمر والتشديد عليه.

كما جاءت (لا) نافية للجملة الاسميّة في مواضع عديدة من آيات التوحيد، ولا يخفى ما في دلالة هذه الجمل على معنى الثبوت، ومن المعاني الّتي أفادها هذا الأسلوب:

١- أنّه أفاد توحيد الله المطلق، وذلك المعنى جاء في أقوى أساليب التوكيد في العربيّة، بنفي الألوهيّة عن غيره تعالى، بـ(لا) النافية للجنس، وإثباته له وحده (عزّ وجلّ) بالقصر بـ(إلاّ). وبـ(لا) النافية للجنس نفي عنه الشريك أيضاً.

٢- نفي الشكّ عن يوم البعث بـ(لا) النافية للجنس، ونفي نصر الأقارب والأولياء بعضهم بعضاُ ً بـ(لا) الرافعة للمبتدأ، بأسلوب مؤكّد.

٣- وفي سياق النفي بـ(لا) النافية للجنس، جاء إبطال ما يعبده الكافرون، بنفي كشف الضرّ والقوّة عن غيره تعالى، ونفي المولى عن الكافرين.

هوامش البحث

(١) ينظر: المفصّل٤٠٧، وشرح المفصّل ١٠٧/٨.

(٢) ينظر: حروف المعاني ٨.

(٣) أساليب النفي في القرآن٤٠٢.

(٤) ينظر: حروف المعاني ٨.

(٥) ينظر: حروف المعاني ٨.

(٦) تفسير البيضاويّ ٤٩٢/٣- ٤٩٣.

(٧) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٢٠٣/١.

(٨) التبيان في إعراب القرآن ٢٠٣/١.

(٩) فتح القدير ٢ /١٤٨.

(١٠) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٥٤/٧، الإتقان في علوم القرآن ٥١/٢.

(١١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ٨٧- ٨٨.

(١٢) أساليب النفي في القرآن.

(١٣) ورد أنّ التوكّل هو اعتماد القلب على الله تعالى في كل الأمور وأن الأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها . الجامع لأحكام القرآن١٣ /٦٢.
(١٤) تفسير البيضاويّ ٤ /٢٢٥.
(١٥) جامع البيان ٣ /١٦٤.
(١٦) جامع البيان ٧ /١٥٩، وينظر: الإتقان في علوم القرآن ٢ /٣٩٧، وتفسير البيضاويّ ٣٩٦/٢.
(١٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٩٧/٦.
(١٨) إرشاد العقل السليم ١١٦/٣.
(١٩) إرشاد العقل السليم ١١٦/٣.
(٢٠) ينظر: التحرير والتنوير ١٠٣/١٢.
(٢١) جامع البيان ٦١/١٢، وينظر: التحرير والتنوير ١٠٣/١٢.
(٢٢) جامع البيان ١٦٨/٣.
(٢٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٥٠٢/١. ومعنى مفاتح الغيب: خزائن الغيب. ينظر: جامع البيان ٧ /٢١٢.
(٢٤) إرشاد العقل السليم ١٤٣/٣.
(٢٥) ينظر: القول المفيد ٣٣٣.
(٢٦) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٤٣/٣، وفتح القدير ١٢٣/٢.
(٢٧) جامع البيان ٢٩٦/٥.
(٢٨) الجامع لأحكام القرآن ١٥١/١٤.
(٢٩) جامع البيان ٦ /٣١٥- ٣١٦.
(٣٠) ينظر: تفسير البيضاوي ٣٥٤/٢.
(٣١) الجامع لأحكام القرآن ٣٥٤/٢.
(٣٢) جامع البيان ٦ /٣١٦.
(٣٣) جامع البيان ٢٣٥/٧.
(٣٤) ينظر: فتح القدير ١٢٩/٢.
(٣٥) تفسير البيضاوي ٨٤/٣، وينظر: إرشاد العقل السليم ٣٠٧/٣، وقد أورد خلافاً في مسألة توحيد الضمير في (تراهم).
(٣٦) ينظر: تفسير البيضاوي ١٨/٤.

(٣٧) يراجع التفصيل في ما يعنيه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ في: التبيان في إعراب القرآن ٢/ ٧٥٤– ٧٥٥.

(٣٨) التحرير والتنوير ١٣/ ١٠٧.

(39) ينظر: جامع البيان ٤/٢٦، والجامع لأحكام القرآن ١٦، ١٨٣.

(٤٠) ينظر: تفسير البيضاويّ ٥ /١٧٧.

(٤١) القول المفيد ١٥٤.

(٤٢) جامع البيان ٤/٢٦.

(٤٣) ينظر: التحرير والتنوير ١٩٣/١١.

(٤٤) إرشاد العقل السليم ١٤٤/٤.

(٤٥) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٣٤١/٧، وفتح المجيد ٧.

(٤٦) ينظر: القول المفيد ١٦١.

(٤٧) جامع البيان ١٩٢/١٤، وينظر: تفسير البيضاوي ٣٩١/٣.

(٤٨) ينظر: تفسير البيضاوي ٨٣/٣، والقول المفيد ١٦٢.

(٤٩) ينظر: تفسير البيضاوي ٣١١/٤.

(٥٠) جامع البيان ١٣٨/٢٠.

(٥١) تفسير البيضاوي ١٥٥/٥.

(٥٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢٢/١٦، وروى عن قتادة قوله: ولا يشفعون لعابديها . أي الأصنام.

(٥٣) فتح القدير ٥٦٧/٤.

(٥٤) تفسير البيضاوي ٧١/٤.

(٥٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٧/١١.

(٥٦) ينظر: فتح القدير ٤٤٩/٤.

(٥٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٤/١٥.

(٥٨) ينظر: تفسير البيضاوي ٥/ ٥٨، وإرشاد العقل السليم ٢٤١/٧.

(٥٩) والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. ينظر: جامع البيان ٢٧٨/٦.

(٦٠) تفسير البيضاويّ ٣٣٤/٢.

(٦١) جامع البيان ٢٧٨/٦.

(٦٢) التحرير والتنوير ٨٩/١١.

(٦٣) جامع البيان ١٩٢/١٤.
(٦٤) التحرير والتنوير ١١٠/٢.
(٦٥) ينظر: التحرير والتنوير ١١٠/٢.
(٦٦) تفسير البيضاوي ١٥/٣.
(٦٧) ينظر: جامع البيان ١٤٠/١١، والتحرير والتنوير ٢٣٢/١١.
(٦٨) جامع البيان ٣/٢٠.
(٦٩) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٢/١٣، وينظر: تفسير البيضاوي ٢٧٣/٤.
(٧٠) تفسير البيضاويّ ١٠٣/٢٠، وينظر: إرشاد العقل السليم ٢٣/٧.
(٧١) إرشاد العقل السليم ٢٣/٧.
(٧٢) ينظر: القول المفيد ١١٧، وقد جاء فيه أنّ هذا المصدر هو نكرة؛ لذا فهو مفيد للعموم. أمّا صاحب القول المفيد ص٦٤، فقد أوّل المصدر بالمعرفة (الإشراك) مرّة، وبالنكرة أخرى، ولا أرى أنّ تأويله بالمعرفة يتعارض مع هذا المعنى، لأنّها غير محدّدة بصفة أو نوع، فهي تدلّ على الإشراك أيّاً كان نوعه. والله تعالى أعلم.
(٧٣) ينظر: جامع البيان ١٢٥/٥.
(٧٤) إرشاد العقل السليم ١٨٧/٢.
(٧٥) القول المفيد ٦٤.
(٧٦) التحرير والتنوير ٢٣٢/١١.
(٧٧) تفسير البيضاويّ ٢٠٨/٣.
(٧٨) تفسير البيضاوي ٤/ ١٧١، وينظر: إرشاد العقل السليم ٦ /١٥٤.
(٧٩) جامع البيان ٦٤/١٨.
(٨٠) ينظر: تفسير البيضاويّ ٣/ ٢٨٨، والتحرير والتنوير.
(٨١) التحرير والتنوير.
(٨٢) التحرير والتنوير ٣٠١/١١.
(٨٣) ينظر: دلائل الإعجاز ١١٦/١.
(٨٤) تفسير البيضاوي ٣٢/١٨.
(٨٥) فتح المجيد ٥٣- ٤٥.
(٨٦) جامع البيان ١١٧/١٤.
(٨٧) الجامع لأحكام القرآن ١١٣/١٠.

(٨٨) ينظر: الإتقان في علوم القرآن ١٠٦/٢.
(٨٩) الكشّاف، وينظر: تفسير البيضاوي ٣٥٢/١- ٣٥٣، وإرشاد العقل السليم ١٢٣/١
(٩٠) الجامع لأحكام القرآن ١٣/٢.
(٩١) ينظر: تفصيل ذلك في: الجامع لأحكام القرآن ٢ /١٣.
(٩٢) ينظر: جامع البيان ٢٩١/١١.
(٩٣) تفسير البيضاوي ٩٥/٤.
(٩٤) والمولى هو الوليّ، وهو ابن العمّ والناصر، ينظر: جامع البيان ١٣٠/٢٥، والجامع لأحكام القرآن ١٤٨/١٦.
(٩٥) ينظر: تفسير البيضاويّ ١٦٤/٥، وفتح القدير ٥٧٨/٤.
(٩٦) جامع البيان ١٣٠/٢٥.
(٩٧) قال البيضاوي ويجوز أن يكونا تأكيدين على طريقة أبلغ ، تفسير البيضاوي ٥٣٩/٥.
(٩٨) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٩/٢٠.
(99) ينظر: مغني اللبيب ٣١٣/١.
(١٠٠) ينظر: شرح المفصّل ١٠٥/١.
(١٠١) جاء في القواعد والفوائد ٢٤٤: وجب أن يجعل مع ما بعدها كالشيء الواحد، ولا يجوز أن يفصل بينها وبينه بفاصل .
(١٠٢) ينظر: مغني اللبيب ١/ ٣١٣.
(١٠٣) ينظر: أساليب النفي في القرآن ٣١.
(١٠٤) فتح المجيد ٣٦، والإله هو المألوه الّذي تألهه القلوب بالمحبّة وغيرها من أنواع العبادة، وكلمة التوحيد نفت ذلك كلّه عن غير الله تعالى، وأثبتته لله تعالى وحده. فتح المجيد ٩٣.
(١٠٥) ينظر: فتح المجيد ٣٥.
(١٠٦) ينظر: فتح المجيد ٩٣.
(١٠٧) القول المفيد ٧٦.
(١٠٨) ينظر: جامع البيان ٦٠/٢، و تفسير البيضاوي ٤٣٥/١.
(١٠٩) فتح القدير ١/ ٦٢.
(١١٠) جامع البيان ١٦٣/٣.

(١١١) التحرير والتنوير ٢٧٦/١١.
(١١٢) التحرير والتنوير ٢٠١/٨، وقد جاء فيه أنّ معنى النسك هو العبادة، وذكر الطبريّ أنّه الذبح، جامع البيان ١١٢/٨.
(١١٣) جامع البيان ٨ /١١٢.
(١١٤) ينظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٢٢٩، وإرشاد العقل السليم ٢١١/٢.
(١١٥) ينظر: التبيان في إعراب القرآن ٣٧٧/١، وإرشاد العقل السليم ٢١١/٢.
(١١٦) الطبري ٤٧/٢٦ .
(١١٧) إرشاد العقل السليم ٩٤/٨.
(١١٨) تفسير البيضاوي ٣٧٩/٢.
(١١٩) التحرير والتنوير ٣٠٥/١١.
(١٢٠) الجامع لأحكام القرآن ١٠٦/١٠.
(١٢١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٤٠٦/١٠، وإرشاد العقل السليم ٢٢٣/٥.
(122) ينظر: أساليب النفي في القرآن ٣١.
(١٢٣) جامع البيان ٤٥/١٢.
(١٢٤) ينظر: تفسير البيضاوي ٢٣٦/٣.
(١٢٥) تفسير البيضاوي ١٧١/٤، وينظر: إرشاد العقل السليم ١٥٣/٦.
(١٢٦) ينظر: إرشاد العقل السليم ١٥٣/٦، وفتح القدير ٥٠١/٣.

المصادر والمراجع

– الإتقان في علوم القرآن: السيوطيّ، (ت ٩١١ هـ)، تح: محمّد البجاويّ، دار الجيل، بيروت، ط٢،١٩٨٧.
– إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود، (ت ٩٥١ هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت (د. ت).
– أساليب النفي في القرآن الكريم: أحمد ماهر البقريّ، دار المعارف، ١٩٨٤.
– التبيان في إعراب القرآن: العكبريّ، (ت٦١٦هـ)، تح: علي محمّد البجاويّ، بيروت ط٣، ١٩٨١.
– التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسيّة (د. ت).
– تفسير البيضاويّ، (ت ٧٩١ هـ)، تح: د.عبد القاهر عرفات، دار الفكر، بيروت ١٩٩٦.

– جامع البيان عن تأويل آي القرآن: الطبريّ، (ت ٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت ١٤٠٥.

– الجامع لأحكام القرآن: القرطبيّ، (ت ٦٧١ هـ)، تح: أحمد عبد الحليم البردونيّ، دار الشعب، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢.

– حروف المعاني: أبو القاسم الزجّاجيّ، (ت ٣٤٠هـ)، تح: د.علي توفيق الحمد، بيروت، ط١، ١٩٨٧.

– دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، (ت ٤٧١هـ)، تح: محمّد التنجيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط١، ١٩٩٥.

– شرح المفصّل: ابن يعيش، (ت ٤٦٣هـ)، دار صادر، بيروت (د. ت).

– فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير: الشوكانيّ، (ت ١٢٥٠)، دار الفكر، بيروت، ط٦، ١٩٨٥ .

– فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، جمعيّة إحياء التراث الإسلاميّ، الكويت، ط٥، ٢٠٠٤.

– القواعد والفوائد: الثمانينيّ ٤٤٢هـ، تح: عبد الوهّاب محمود الكحلة، مؤسّسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤.

– القول المفيد في شرح كتاب التوحيد: محمّد بن صالح العثيمين، تح: أحمد الطحّان، دار المنار، ط١، ٢٠٠٤.

– كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية، (ت ٧٢٨ هـ)، تح: عبد الرحمن محمّد قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية (د. ت).

– مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام، (ت ٧٦١ هـ)، تح: د.مازن المبارك ومحمّد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط٦، ١٩٨٥.

– المفصّل في صنعة الإعراب: الزمخشريّ، (ت ٥٣٨ هـ)، تح: علي أبو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٣.